الفصل الثالث عشر

الإخوان المنتصرون

وأخيراً... تحقق الحلم فى الرابع والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٧٣ ... إذ انطلق صوت الأذان لأول صلاة تقام فى المركز الإسلامى بميونيخ – أو مسجد ميونيخ – الذى كان قد افتتح لتوه. لقد كانت تلك الصلاة أول صلاة تقام فى مسجد على امتداد التاريخ البافارى برمته، وكان المسجد هو السادس على امتداد ألمانيا الغربية بأسرها.

obeikandl.com

إن مسجد ميونيخ، الذى بلغت نفقات إنشائه ثلاثة ملايين مارك ألمانى (أو ما يعادل خمسة ملايين دولار أمريكى بأسعار عام ٢٠٠٩)، قد بنى على طراز المساجد العثمانية بمئذنة رفيعة مدببة يبلغ ارتفاعها ٣٥ مترا (حيث يطلق المعماريون على هذا النمط من المآذن: القلم الرصاص) ... مئذنة يعلو قمتها هلال ذهبى. كذا، فقد كان ثمة سلم حلزونى يصل إلى شرفة المؤذن، وإن كان السلم قطعة معمارية رمزية فحسب ... إذ كان الأذان يرفع من داخل المسجد لا من شرفة المؤذن. أما المسجد نفسه، فكان تكوينا ذا شكل بيضاوى، أطلق عليه اسم "البيضة الذرية"، حيث بنيت القبة باستخدام الخرسانة المسلحة وتم تغطيتها ببلاطات لازوردية اللون، أما الداخل ... فكان يحوى غرف اجتماعات ومكاتب وخزانة كتب. إن مسجد ميونيخ كان عملا لمعمارى تركى يدعى "عثمان أديب غوريل" ... ذلك المعمارى الذى سعى إلى تصميم بناء جذاب قليل النفقة.

أما مراسم الاحتفال بتدشين المسجد، فقد حضرها نحو مائتين من الشخصيات

obeikandl.com

المرموقة والدبلوماسيين، من بينهم العديد ممن كانوا، قبل ١٥ عاما من تاريخ التدشين، طلبة سيطروا على مقاليد مشروع بناء المسجد. بيد أن أى مراقب لمسيرة بناء المسجد سيلحظ ملمحا معيبا انطوى عليه مشهد الافتتاح. فحين جاء الدور على القائم على مسجد ميونيخ لتقديم "المفتاح الذهبى" هدية إلى ممول المشروع، لم يكن "سعيد رمضان" هو من سلم "المفتاح" بحافظته المصنوعة من جلد الماعز إلى أحد الشيوخ الجالسين بعيدا ... بل كان لطالب باكستانى شرف تأدية ذلك الطقس. ولم يكن رمضان متغيبا فحسب، بل كان قد هجر مشروع المسجد ضجرا واستياء حيث كاد يطرد من لجنة البناء.

لقد بلغ نفوذ رمضان مداه قبل ذلك بأحد عشر عاما حين أسهم فى تكوين "رابطة العالم الإسلامى". وكان الرجل قد عمل بدأب شديد لعقود فى سبيل توحيد صفوف المسلمين فى العالم أجمع حول هدف مشترك. وبتدشينه لرابطة العالم الإسلامى، نجح

obeikandl.com

رمضان في بناء مؤسسة أقيمت لتبقى ... حيث كان في أوج نفوذه خلال الاجتماع المصيري الذي شهد قيامه – بشخصه – بتسليم المقترح الرسمي لإنشاء الرابطة إلى الملك سعود بن عبد العزيز، العاهل السعودي آنذاك[٩٧]. وكان سعيد رمضان راغبا في تذويب الفوارق القومية ونشر الإسلام لتكون له الكلمة العليا. بيد أن السعوديين كانوا قد بسطوا نفوذهم على رابطة العالم الإسلامي منذ البداية على النحو الذي أوضحته مراسم حفل التدشين. فالمملكة السعودية كانت قد سيطرت على جميع المناصب العليا، وهي التي اضطلعت بالتمويل. هذا، وكان العديد من أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" قد توددوا إلى المملكة ... فالمملكة هي موضع الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة، فضلا عن ثرائها ومن ثم قدرتها على تمويل أي مشروع بحاجة إلى أموال طائلة من مكتبات ومدارس إلى مراكز تدريب وحركات تبشيرية عالمية النطاق. كذا، فالأسرة المالكة هناك (آل سعود) تتبنى ضربا محافظا من "الإسلام" يشبه في أوجه عديدة ذلك المتبع من قبل الجماعة. هذا، وقد وجد العديد من أعضاء الجماعة ممن تعرضوا للاضطهاد في مصر ملجأ لهم في المملكة، حيث قبل جلهم الأموال السعودية. إلا أن رمضان قد امتنع بشدة عن قبول أموال من المملكة في عزمه على البقاء مستقلا، حتى حين عمد السعوديون بشدة إلى استمالته بأموالهم. وفي عام ١٩٦٣، طلبت "رابطة العالم الإسلامي" إلى رمضان جعل مركزه الإسلامي بجنيف السويسرية أول مقر لها بالخارج، إلا أنه رفض طلبها، فضلا عن رفضه للمساعي التي رمت إلى تحويل مجلته "المسلمون" أداة رسمية للرابطة. أما الخطاب الذي أرسله رمضان للرابطة متضمنا رفضه لأموالها فكان ممهورا بجهة إصدار وهمية – هي "إسلامستان" ... في إشارة إلى رفضه التام لأن تسيطر أية دولة على نشاطه، أو أن تفقده استقلاله. إلا أن السعوديين لم يصرموا حبائلهم برمضان من فورهم. إذ كان رمضان – آنذاك – ما يزال يحمل جواز سفر دبلوماسيا كسفير فوق العادة لرابطة

العالم الإسلامي. إلا أنه قد عمد، لاحقا، إلى استخدام جواز سفر باكستاني ... في إشارة جاءت – على الأرجح – لتفصح عن كونه قد ضاق ذرعا بأفاعيل السعوديين.

وبتغير ميزان القوى في إقليم الشرق الأوسط، انفض الطلبة من حول "سعيد رمضان" وتركوه قائما. وقد تضافرت عوامل عدة أفضت إلى ذلك ... كان أبرزها العامل المالي. ولعل نور الدين نمنقاني كان منحازا حين أورد أن رمضان كان "ضجيجا بلا طحن"، إذ كان يعد كثيرا ولا يفي إلا بالقليل ... إلا أن نمنقاني كان محقا فيما ذهب إليه، إذ كان رمضان مثيرا للجدل على نحو كبير، إلى درجة أن الكثيرين ممن تعهدوا بتقديم الأموال لم يفوا بتلك التعهدات، فلم يف بها إلا أقل القليل. وكان رمضان قد حصل على أكبر تعهد بمنح الأموال من أحد رجال الأعمال السعوديين، إلا أن احتمالات أن يفي الرجل بتعهده كانت قد تضاءلت نتيجة خلاف رمضان مع السعوديين وانفصاله عنهم.

أما الذي اضطلع بدور "بروتس" في هذه الدراما فكان "غالب همت" ... إذ تكهن بعض الزملاء من الطلبة أن "الهوية القومية" قد كان لها دور في المعضلة القائمة ... إذ كان رمضان مصريا، فيما كان همت سوريا ... حيث كان فرع "الإخوان المسلمين" السوري أكثر الأفرع نشاطا بعد نظيره المصري. وكان يترأس الفرع السوري، "عصام العطار" ... الذي قدم أوروبا في أوائل ستينيات القرن العشرين حيث اختارها ملجأ له في المنفى. هذا، ومن الأرجح أن كان غالب همت قد أراد أن يجلب "العطار" إلى ميونيخ، عوضا عن رمضان. إلا أن "العطار" قد رفض الأمر ليستقر في مدينة "آخن" الألمانية وينشئ مركزا إسلاميا بها. هذا، فيما ذهب آخرون إلى افتراض أن المشكلة الحقيقية كانت تكمن في افتقار همت إلى "مثالية" رمضان الذي كان يأمل في نشر الرؤية الإسلامية من خلال التعليم والتثقيف. أما همت، فكان "سياسيا" بأكثر مما كان رمضان – الأمر الذي أدى، بالفعل، إلى أن

عانى المركز الإسلامى مستقبلا عنيفا ذا قلاقل وأنواء. وفى هذا الصدد، فإن "كمال توفيق الهلباوى" المتحدث باسم جماعة "الإخوان المسلمين" فى التسعينيات، والذى أسس الرابطة الإسلامية فى بريطانيا MAB فى عام ١٩٩٧، وترأس إدارتها، والذى تربطه علاقات بكل من همت ورمضان ... يذهب إلى القول بأن "سعيد رمضان" كان إسلامويا تقليديا يعرف تعاليم الإمام حسن البنا، إذ كان يحيا فى منزله". واستطرد الهلباوى قائلا: "ربما عمد بعض الأعضاء الجدد إلى انتهاج اقتراب سياسى على نحو أكبر حيث لم يكن أولئك مهتمين بعنصر التعليم. كذا، فربما لم يعر البعض تعاليم الإمام البنا اهتماما كافيا" ... جاء ذلك فى حوار جمعنى بالهلباوى فى العشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥ بلندن.

ويحلول منتصف الستينيات، أضحى سعيد رمضان وقد ضاق ذرعا بالطلبة ... وذلك وفقا لعبيد الله مجددى الذى ظل بلجنة بناء مسجد ميونيخ عقب ترك رمضان لها. يقول مجددى: "لقد سئم الطلبة رمضان الذى قال إنه لن يربطه بهم أى رابط بعد ذلك".

أما همت – فيتذكر الأمر على نحو مغاير، إذ قال: "إن رحيل رمضان لم يكن له أدنى علاقة بالاختلافات القومية أو بمستوى الطموحات المتباين". ويضيف: "لم يكن لرمضان دور ليضطلع به فى لجنة بناء المسجد، كذا فقد كانت تحيطه مشاغل كثيرة – لاحقا – لم يعر رمضان معها اهتماما باللجنة ... كان رمضان قد حضر بعض اجتماعات قليلة، إلا أنه قد اعتذر عن عدم الحضور لاحقا مبررا الأمر بكونه لم يعد قادرا على المضى قدما فى هذا الشأن ... ولا أدرى السبب الذى دفعه إلى ذلك. لقد كان الجهاد من أجلنا فى ميونيخ عبئا لم يكن عاتق سعيد رمضان ليقوى عليه".

وقبل أن يترك رمضان ميونيخ للمرة الأخيرة، وذلك عام ١٩٦٦، على نحو التقريب

... عمد الرجل إلى تحذير "فضل يزدانى"، ذلك الباكستانى الذى سيضحى خليفة له فيما بعد، من أنه قد صار محاطا بحفنة من الانتهازيين السياسيين. كذا، فقد حذره رمضان – باسما – من مغبة المكايد السياسية، ومن احتمالية أن يكون العرب ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أفضل من سائر المسلمين الآخرين. واختتم رمضان تحذيره ليزدانى بالقول: "سوف تخبرك الليالى من هم العرب" ... على نحو ما جاء على لسان "يزدانى" حين التقيته فى ميونيخ فى الثامن والعشرين من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٥ .

فى البدء، بدا الطلبة وكأن قد حلت بهم لعنة. فبعد رحيل رمضان، لم يكن لديهم منسق ذو خبرة. كذا، فلم يكن لديهم أدنى فكرة عن كيفية اجتذاب الأموال، وكانوا يفتقرون إلى الموارد اللازمة لحملات جمع الأموال. أما رحيل الجنود السابقين، فقد وضعهم أيضا فى مأزق. فحين كان رجال "فون منده" ما يزالون جزءا من خطة بناء المسجد، كان بإمكان المسلمين الاطمئنان إلى الحصول على قطعة أرض بالمجان فضلا عن اعتراف الحكومة بمشروعهم باعتباره هيئة خيرية – الأمر الذى يعنى أن تكون المنح والهبات معفاة من الرسوم الضريبية. إلا أن المسئولين الألمان كانوا قد تراجعوا عن منح هذين الامتيازين. فلسنتين بأكملهما، سعى الطلبة إلى تجميع الأموال اللازمة لمشروعهم دونما جدوى.

وهنا تدخل "فضل يزدانى" ... الذى طلب إليه رمضان أن ينضم إلى لجنة بناء المسجد عام ١٩٦٠، حيث رأى فيه مخايل "مثالى مقتدر". وينتمى يزدانى إلى عائلة ذات شأن تربطها بالعالم الإسلامى روابط جيدة ... ذلك أن رمضان – المتسم دوما بنزعة عالمية – لم يكن على الأرجح راغبا فى أن يسيطر العرب على المشروع، دون غيرهم. لذا، فقد عمد إلى قرار حكيم صائب باختياره يزدانى، الذى ثبت أنه مكرس للقضية. لقد أرسله أبوه لدراسة الطب فى ألمانيا، إلا أنه هجر دراساته للالتحاق بلجنة بناء المسجد ... ليصبح رئيسا لها بعد أن تغير اسمها إلى "الجماعة

الإسلامية بجنوب ألمانيا"، وذلك فى عام ١٩٦٥ - بعد مغادرة رمضان. ومن خلال الأب الذى كان من رجال الأعمال الباكستانيين الذين أصابوا نجاحا ... تم تقديم يزدانى إلى السفير الباكستانى فى ألمانيا الغربية، الذى قدمه - بدوره - إلى سفارات بعض البلدان الإسلامية. لقد أدت الاحتجاجات التى خرجت من تلك السفارات إلى جعل وزارة الخارجية الألمانية تضغط على المسئولين البافاريين لمنح تلك الجماعة الإسلامية إعفاءات ضريبية مميزة ... حيث وفر هذا الامتياز الثمين لها عشرات الآلاف من الدولارات على امتداد ثلاثة عقود ونصف تالية.

وفى النهاية، تمكن الطلبة من جمع أموال تكفى لابتياع قطعة أرض على أطراف ميونيخ، فضلا عن تأجير خدمات المعمارى الذى سيعهد إليه بتصميم مبنى المسجد. هذا، وقد أُرسِيَ حجر أساس المسجد عام ١٩٦٧، حيث ألقى السفير الباكستانى لدى ألمانيا كلمة بهذه المناسبة. إذا، فقد أضحى اكتمال بناء المسجد وشيكا.

إلا أن أزمة جديدة قد جاء دورها. لقد كان التمويل الأساسى المقدم ليزدانى واردا من المملكة الليبية ... والتى كان لغالب همت علاقات وروابط بها من خلال جماعة "الإخوان المسلمين"، حيث كان من المتوقع أن يقوم البلاط الملكى الليبى بتمويل المشروع. أما أساسات المبنى فكانت قد أرسيت، وأما الهيكل الخرسانى فكان قد أقيم ... حتى لقد تم تركيب المولدات وأنابيب التدفئة. هذا، وتشهد ليبيا فى الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩ انقلاباً عسكرياً أطاح بالملكية بها قاده ضابط يدعى معمر القذافى، والذى عمد إلى إيقاف ضخ الأموال اللازمة لبناء المسجد - الذى كان ما يزال هيكلا حيث تعرض لعوامل البلى المختلفة، إذ أخذ الصدأ طريقه إلى الأنابيب التى سبق تركيبها. أما يزدانى، فقد يمم - يائسا - شطر السفارة الليبية، والتى كانت تأتمر حينها بأوامر العقيد معمر القذافى ... حيث ناشد القائمين عليها بالسماح بتدفق الأموال بغية استكمال مشروع المسجد ... فما كان من السفير إلا أن أرسل

سكرتيرا لديه لاستطلاع الموقف والوقوف على أحوال موقع البناء. وحرصا منه على تلميع صورته وصقلها أمام العالم الإسلامى، وافق القذافى على دفع المبلغ المتبقى اللازم لاستكمال المسجد (نحو ١,٥ مليون مارك ألمانى، آنذاك). وبحلول عام ١٩٧١، صارت الأموال تتدفق ليفتتح المسجد فى الرابع والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٧٣ – كما وردت الإشارة فى مستهل الفصل الحالى.

وبعد أشهر قلائل ... اجتمع أعضاء الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا مرة أخرى فى ميونيخ ... حيث سيشكل الاجتماع المذكور الهيئة التى سيعمل بموجبها المسجد لعقود تالية واضعا إياه فى قبضة الجناح ذى التوسع السياسى، السعودى التمويل من أجنحة "الإخوان المسلمين" ... وبعبارة أخرى، فى قبضة غالب همت. وكما العهد فى كل من اجتماعات الجماعة نصف السنوية، كان القرار الرئيسى حول هوية الأحق بتولى منصب الرئاسة. وكان يزدانى قد اضطلع بالمنصب منذ عام ١٩٦٥ وبدا أنه واثق فى الفوز لا محالة. فبالتعاون مع أحمد شميده، ذلك الألمانى الذى اعتنق الإسلام وأشركه رمضان فى تأسيس "رابطة العالم الإسلامى" عام ١٩٦٢ ... قام يزدانى بجمع الأموال اللازمة لبناء مسجد ميونيخ.

إلا أن يزدانى لم يكن من بين الحضور ... إذ كان قد عاد إلى باكستان ليبقى إلى جوار والده المريض. وفى أثناء غيابه، اضطلع البعض بحملة تشهير[٩٨] ذهبت إلى كون يزدانى قد أثرى حسابه الشخصى من أموال المشروع، إلا أنه قد تم تفنيد تلك التهمة ودحضها لاحقا حيث تم إسقاطها، إذ كانت مزاعم لا أساس لها من الصحة. أما المقاولون الكبار، فقد قامت السفارة الليبية بدفع مستحقاتهم مما جعل من العسير على أى فرد أن يقتطع أموالا لحسابه. بيد أن الشائعات قد جعلت يزدانى مهددا ... حيث احتشد فصيل من الطلبة العرب ضده. ومثلما كانت الحال تماما حين قام الطلبة العرب بتنحية اللاجئين المسلمين قبل عقد من الزمان، كان

التصويت هذه المرة مغلقا ومثيرا للجدل، حيث عمد الطلبة العرب إلى الدفع بمرشحين اثنين أحدهما سورى (غالب همت) والآخر مصرى. وفى الجولة الأولى للتصويت، لم يفز أى من المرشحين بأغلبية ثلثى الأصوات، ليلى ذلك انسحاب المرشح المصرى ليفوز همت مدعوما بأصوات العرب المتكتلين وراءه. وحين علم يزدانى بالأمر، فت ذلك فى عضده على نحو بالغ.

وفى لقائى بيزدانى، قال الرجل: "إننى أقر بكونى سعيدا لأن المسجد قد اكتمل بناؤه ... إلا أنه بين الحين والآخر أجدنى محبطا كسيفا بعض الشىء لما آلت إليه الأمور ... إذ لم تكن تلك الأمور مثالية على النحو الذى توقعت أن تكون عليه". فإحدى المشاكل التى ذكرها يزدانى كانت التشديد على العرب دون من عداهم من المسلمين. واستطرد يزدانى: "لقد تحدثت إليهم حول إتاحة الفرصة أمام المسلمين على اختلافهم، إلا أن ذلك لم يلق قبولا لديهم ... إذ كانوا يريدون فصيلا واحدا: العرب".

هذا، وقد بدت فكرة كون العرب قد تحالفوا معا لاستبعاد أحد الباكستانيين فكرة تآمرية أو كونها زفرات حرى لمهزوم. فربما كان التشابه مع استبعاد جنود آسيا الوسطى السابقين فيما مضى محض مصادفة، إلا أن أحداث العام التالى قد أظهرت بجلاء الطبيعة الاستبعادية للجماعة. ففى عام ١٩٧٤ رفع مائة عامل تركى (من العمال الضيوف) مظلمتهم ضد "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا". هذا، وقد زعم أولئك الأتراك أنهم وآخرين قد حرموا عضوية الجماعة لأكثر من مرة، بالرغم من أن لائحة الجماعة تنص على "أنه يحق لأى مسلم أن ينضم إلى عضوية الجماعة ما دام يؤمن بأهدافها ويدعم مصالح المجتمع وأهدافه" ... وقد قال الأتراك إنهم قد فعلوا – فقد ساندوا عمليات بناء المسجد ودعموها، وهم يريدون الآن أن يساهموا فى إدارته. ألم يعهد ببناء المسجد إلى معمارى تركى؟!... إلا أن الجماعة صوتت ضد انضمام الأتراك لعضويتها قائلة إن ذلك مدعاة لإحداث الفرقة ونقض الاتساق وعرى التماسك.

وفى عام ١٩٧٥، سعى الأتراك ثانية إلى الانضمام لعضوية الجماعة، مدعومين فى تلكم المرة بفضل يزدانى الذى كان ما يزال، آنذاك، عضوا رسميا من أعضاء المسجد. أما الاجتماع فكان مقصورا على الأعضاء، فلم يسمح لغيرهم بالمشاركة. هذا، وقد طالب يزدانى أن يتاح لأى فرد داخل المسجد حضور الاجتماع ... وكان العديد من الأتراك قد وفدوا أملا فى كسر احتكار العرب لعضوية الجماعة. كذا، كان يزدانى يأمل فى احتشادهم لتأييده ... إلا أن غالب همت ومناصريه قد صوتوا لجعل الاجتماع مغلقا مقصورا على الأعضاء. تلا ذلك قيام يزدانى برفع دعوى أمام المحكمة متهما جماعة "الإخوان المسلمين" باحتكار السيطرة على مقدرات المسجد بما يشبه قيامها باختطاف المسجد عنوة. أما همت وأتباعه، فوفقا لمحضر الاجتماع، فقد ذهبوا إلى "كون الاتهام باطلا غير ذى موضوع، فليس لدى يزدانى ما ينهض دليلاً على ادعائه". لقد أزيح يزدانى نهائيا عن الجماعة، وكانت تلك نهاية علاقته بمسجد ميونيخ. وعلى امتداد الأعوام التالية، عمل يزدانى مترجما بإحدى المحاكم حيث أبعد نفسه تماما عن أى شىء قد يربطه بمسجد ميونيخ.

ومرة أخرى ... تناولت جماعة المسجد قضية السماح للأتراك بالانضمام لعضوية الجماعة. إن العديد ممن منع من حضور الاجتماع المغلق كانوا من "العمال الضيوف" ... تلك الظاهرة التى مثلت جزءا من موجة جديدة غير مسبوقة من هجرة المسلمين صوب أوروبا. لقد تم إخبار أولئك الذين منعوا فى السابق بأن قد صار بإمكانهم حضور الاجتماع. ونظرا لكون ألمانيا لا تحوى إلا القليل من المساجد، بل كان جل دور العبادة الإسلامية بها أقرب إلى زوايا أو غرف يقوم اللاجئون باستئجارها ... فقد كان أولئك الأتراك تملؤهم الحماسة للانضمام إلى "مسجد" – بقدر ما تحمله الكلمة من معان ... مسجد ذى قبة ومئذنة، ذلك المشاد بالفعل على غرار المساجد العثمانية. وفضلا عن ذلك، فقد اتسع نشاط "الجماعة الإسلامية

بجنوب ألمانيا" ليشمل مساجد فى "نورمبورغ"، و"أولم" ... ذلك التوسع الذى كان السبب فى تغيير اسمها. هذا، وقد شعر الأتراك بأن الجماعة لابد لها من قاعدة واسعة النطاق بألا تقتصر على حفنة الطلبة ... هؤلاء الذين قيض لهم إدارة المشروع وتسييره خلال الخمسة عشر عاما المنصرمة.

إن إدارة الجماعة قد رفضت الالتماس بالانضمام إلى عضويتها ... ليلى ذلك قيام الجماعة بتعديل دستورها للحد من العضوية بها. فدستور الجماعة قبل التعديل قد نص على أحقية أى فرد ذى اهتمام بأمر المسجد فى الانضمام لعضوية الجماعة، إلا أن الدستور قد عدل لخلق فصيلين اثنين: فصيل يضم "الأعضاء الاعتياديين" الذين يحق لهم غشيان المسجد وتأدية الصلوات به ... وفصيل آخر يضم أولئك القائمين على إدارته وتسيير شئونه. وكان القرار يعنى أن الأتراك يحق لهم أداء صلواتهم والتبرع بالأموال دون أن يكون لهم حق التصويت. ويا للمفارقة الساخرة، فقد عكس القرار دور الأتراك فى المجتمع الألمانى بصفتهم من "العمال الضيوف" إذ حرموا صفة "المواطنين غير منتقصى الحقوق".

أما الرواية الرسمية للاجتماع، فنصت على أن فصيل القائمين على الإدارة قد رغبوا فى أن يظل الفصيل صغير الحجم بحيث يتمكنون من تسيير شئون الجماعة على نحو كفء. وإبان الاجتماع المذكور، كانت "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا" تضم واحدا وأربعين عضوا فحسب، وهو العدد ذاته تقريبا الذى كانت تضمه قبل ذلك بعشر سنين حين كان اسمها "لجنة بناء مسجد ميونيخ"، وكان اهتمامها ينصرف بالكلية إلى تشييد المسجد ... ورغما عن كونها صارت تضم أعضاء على امتداد الجنوب الألمانى، إلا أنها قد احتفظت بإدارتها المركزية ذاتها.

وعلى مدار ربع القرن التالى، سيعمل غالب همت على الإفادة من ذلك التماسك

... حيث مضى قدما بالمركز الإسلامى بميونيخ عبر مسار انطوى على قدر من مغامرة ... إذ سيضحى المركز منظمة قومية لها أفرع فى القارة الأمريكية، مرسية حجر الأساس لمنظمات أوروبية ما تزال قائمة إلى اليوم، بما يؤكد أن "نسخة" الإخوان المسلمين المعتمدة للإسلام سيقيض لها أن تكون النسخة الأكثر نفوذا فى الغرب بأسره. إن مسجد ميونيخ سيضحى عرضة للقصف والحرق، بيد أنه سيضحى محورا للجهاد ... إذ عمد القائمون عليه إلى تجنيد الشباب المسلم للحرب فى البوسنة. كذا، فإن من دينوا لاحقا بالإرهاب سيعمدون إلى اختيار مسجد ميونيخ كوجهتهم المفضلة لائذين بأعتابه ... أما همت فسيجبر ذات يوم على الاستقالة من منصب رئيس المسجد حين يتم اتهامه بالقيام بتمويل تنظيم القاعدة.

بيد أنه وقبل أن تأخذ جميع تلك الأحداث والوقائع مجراها، سيكون غالب همت قد وجد شريكا قويا ليعادل به كفته المرجوحة نتيجة ضعفه. لقد كان همت انعزاليا حيث كان يحيا بعيدا من المسجد، وكان ظهوره فى المحافل العامة أمرا نادر الحدوث. كذا، فقد كان من الصعب العثور على صور فوتوغرافية له. وعلى مدار تواتر الأعوام، عمد الرجل إلى رفض جميع الدعوات الموجهة إليه لإجراء لقاء أو حوار معه. أما "الشريك القوى"، ويدعى "يوسف ندا" ... فكان على النقيض من همت تماما ... إذ كان متحمسا متوقدا وهاجا، وانبساطيا ودودا – شغوفا بالشهرة أيما شغف، محبا للظهور أيما حب. لقد أتاح ندا علاقات هامة لغالب همت، أتاحتها له، بدورها، شبكة علاقاته المترامية الأطراف. وكان ندا يكبر همت بسنوات ... ندا ذلك الإخوانى المخضرم الذى قام بتوفير التمويل اللازم لمسجد ميونيخ، وإمداد "الإخوان المسلمين" داخل مصر بشبكة علاقات دولية واسعة النطاق. فإذا كان سعيد رمضان قد مثل "الرؤية الثاقبة"، وكان غالب همت قد مثل "العقل المدبر" للجماعة ... فإن يوسف ندا هو "مهندس علاقاتها" ... ذلك الرجل

الذى مزج ببراعة متناهية كلا من العنصر البشرى والعنصر التمويلى.

لقد انضم يوسف ندا إلى جماعة "الإخوان المسلمين" وكان لا يزال شابا – آنذاك – فى الإسكندرية. ويتذكر ندا تلك الأيام حيث كان ثمة مشاجرة فى الشارع بين مجموعتين من الأشخاص ... لم ينهها إلا تدخل مجموعة يلبسون ملابس الكشافة، عرف ندا أنهم من جماعة "الإخوان المسلمين"[٩٩]، فانضم إلى الجماعة فى عام ١٩٤٨ ليصبح عضوا ملتزما إذ رأى فى الجماعة طريقا للخلاص الوطنى. وحين بلغ الثالثة والعشرين ألقى القبض عليه وزج فى السجن ... لقد كان ذلك فى عام ١٩٥٤، حيث صدرت الأوامر من جمال عبد الناصر بالقبض على أى ممن كانت له علاقة بالإخوان، كذا فقد قام بحظر الجماعة وتشتيت أعضائها كل مشتت. لقد كانت تلك حملة الاعتقالات التى أفلت سعيد رمضان من الوقوع فيها، إلا أن ندا قد تم القبض عليه ليعتقل لعدة سنوات. ويتذكر ندا أيام السجن قائلا: "لقد رأينا وسائل تعذيب شتى من الصعق بالكهرباء، والغمر فى مياه مثلجة، والسياط، والكلاب، و، ... وغيرها". وبينما كان سجينا، التقى ندا قيادات كبيرة فى جماعة "الإخوان المسلمين" وراء القضبان ... حيث ستظل تلك الروابط قائمة على امتداد حياة الرجل.

وفى البدء، ركز ندا جهوده فى "البيزنس"، حيث عمل بمعمل للجبن والألبان كان قد أسسه، إلا أنه لم يحتمل العيش فى "مصر عبد الناصر". آنذاك، كان ندا ما يزال يشعر بقربه من جماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أنه قد تم حظر الجماعة ... وشعر ندا بمدى وطأة الرقابة اللصيقة، فالتمس سبيلا لمغادرة البلاد. وفى عام ١٩٦٠، ارتحل إلى النمسا لدراسة "تصنيع الأجبان"، وذلك لرغبته فى أن تكون تلك حرفته حين العودة إلى أرض الوطن. وفى النمسا، تواصل الرجل – على الفور – مع أعضاء الجماعة بالمنفى حيث سمع بالطلبة المسلمين فى ميونيخ. وفى العام

ذاته، غادر ندا بيته الجديد فى "غراتس" النمساوية قاصدا ميونيخ لمشاركة الطلبة احتفالهم بعيد الأضحى.

وكانت تلك بداية تعرفه إلى غالب همت. وفى البداية، كانت لقاءات الرجلين متباعدة وغير منتظمة ... إذ كان ندا يرتحل بين الحين والآخر إلى ميونيخ، إلا أنه لم يكن عضوا أصيلا فى المجموعة ... كذا، فقد أخذت علاقته بميونيخ تضعف تدريجيا حين عمد إلى ممارسة "البيزنس" فى المملكة الليبية حيث حزم أمتعته قاصدا طرابلس ... وهو الأمر الذى أتاح للطلبة المسلمين فى ميونيخ تمويلا مبدئيا لبناء المسجد.

وفى ليبيا، طلب البلاط الملكى إلى ندا أن يكون المستشار الزراعى للبلاد، فوافق الرجل. كذا، فقد فاز بامتياز استيراد مواد بناء من النمسا ... ومثلها فى ذلك مثل معظم مشاريع ندا، كان الامتياز يشبه احتكار ارتكن إلى شبكة علاقات الرجل الواسعة. وبسقوط الملكية فى ليبيا فى إثر الانقلاب العسكرى الذى قاده معمر القذافى فى الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩، غادر ندا البلاد ... حيث زعم أن قد تم تهريبه خارج الأراضى الليبية نظرا للعلاقات الوثيقة التى كانت تربطه بملك البلاد السابق، إدريس السنوسى، حيث ارتحل أولا إلى تونس ومنها إلى اليونان، ثم إلى ألمانيا ... حيث توطدت صداقته بغالب همت ... عندها قرر ندا الاستقرار فى أوروبا، وسعى للبحث عن سكن له، فانتقل إلى كانتون "كامبيونا" جنوب سويسرا بالقرب من بحيرة "لوغانو" – وهى أرض إيطالية ولكنها فى التراب السويسرى. وفى تلك الأثناء، كان كل من همت وندا لصيقين للغاية، حيث طلب همت إلى ندا الانضمام إلى "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا"، حيث التحق بها عام ١٩٧١ . وسرعان ما عمد همت إلى "كامبيونا" للسكن بها، وذلك على بعد خطوات قلائل من بيت ندا، إذ لم يكن يفصل بيتيهما سوى ديار قليلة.

وحين عقدت الجماعة الإسلامية اجتماعها عام ١٩٧٣، غادر ندا "كامبيونا" قاصدا ميونيخ لحضور الاجتماع – ولعقود ثلاثة لاحقة، ستتم إدارة شئون مسجد ميونيخ، وكذا الشبكة المتنامية من المراكز الإسلامية فى ألمانيا ... من كانتون "كامبيونا" الإيطالى. وفى الاجتماع المذكور، تم استبعاد سعيد رمضان رسميا نظرا لتغيبه غير المبرر، حيث قام ندا بالتصويت لصالح القرار.

هذا، وقد أسهم ندا فى ربط مسجد ميونيخ بشبكة "الإخوان" السعودية. فالرجل ما تزال تربطه علاقات وثيقة بجماعة "الإخوان المسلمين" فى مصر، حيث يقول إنه ظل لعقود طوال مفوض العلاقات الخارجية فى الجماعة. على أنه من الصعب معرفة مدى صحة هذا الزعم، لكن ندا قد قام بالفعل بمهام لعب خلالها دور مفوض الإخوان حين قصد إيران إبان الثورة الإسلامية بها التى أسقطت حكم الشاه لتحل محله جمهورية ثيوقراطية تحت إمرة الخمينى. كذا، فقد كان ندا مفوضا إلى أفغانستان لمساعدة المجاهدين هناك فى صراعهم ضد السوفييت. لقد أراد ندا إحلال السلام فيما بين الحكومات، وكانت لديه خطط استلزمت التعاون، لا التناحر، بين السلطات. وفى هذا الإطار، لم يكن ندا يشبه رمضان الذى لم يجبن مطلقا من التصادم مع الحكومات ... إلا أن ندا، بطريقة أو بأخرى، كان أكثر ثورية من رمضان. فعلى حين بقى رمضان فى جنيف منعزلا مستبعدا، فإن "بيزنس" ندا المحموم، وجهوده الدبلوماسية قد شقت الطريق فى خضم بحر لجى متلاطم الأمواج لثورة عالمية النطاق محورها الزخم الإسلامى ونشاطه المتنامى. إن التزاوج ما بين البترودولارات (ممثلة فى التمويل السعودى) وأيديولوجية جماعة "الإخوان المسلمين" ... قد أعد المشهد لفشو الفكر الإسلاموى، ليس فقط على امتداد العالم الإسلامى، بل فى أرجاء العالم الغربى أيضا ... ذلك الفكر الذى كان محوره متمثلا فى "يوسف ندا" و"غالب همت" و"المركز الإسلامى بميونيخ".